

العهة الاجتماعى فى حاة المسلمى ..

آخر حصوى المواجهه مع العرب

الاستاذ عبد القادر بن حرزالله

كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الاسلاميه. جامعه باتنه

ان حتر الهزيمه يمتد فينا ويتوغل الى كل مناطق الصمود التي كانت الى وقت قريب تتمتع بحصانه مضعفة اعتقدنا انها بعيدة عن التصدع او الاختراق، حتى ما حققته المحاولات الاصلاحية من مكاسب غدت اليوم مجرد مظاهر باهية لا تملك اذنى تأثير في حركة الحياه .

بل ان حركة الحياه اصبحت هي القواف التي تتحكم في اشكال تلك المكاسب وتفرض عليها تكيفا متتاليا مع الاوضاع القائمة باخذ في بعض الاحيان طابعا جذريا يفقدها صفة المكسب فتتخطم مسنمة إمكانية قضاء الوسيلة الى غايتها في ذهول تام عن علاقة الوسيلة بالغاية .

ومع هذا الحضور السلبي لهذه المكاسب فإن استمرار وجودها الصوري أصبح غاية لا تقضى الى شىء معلوم هذا ان تم نجزم بان تلك المكاسب تحول بعضها الى مجرد ركام تعتبر ازاحتته عنا ثقلا يضاق الى اعياء مايجد من محاولات اصلاحية سديدة يمكنها ان تحدث اثرا اصلاحيا في حياه الناس .

ومع هذه السلبية البارزة التي يلتحف بها هذا الوجود الصوري لما يصطلح عليه بالمكاسب فإن الدفاع عن هذا الوجود الصوري الذي يفترض أن يتوسل به لتفعيل الإسلام في حياه المسلمين تحول تحت هيمنة الحضارة الغربية وضراوة سيطرتها على مناحي الحياه الى السقف الذي يمكن أن تنتهي اليه حيود الحركات الاصلاحية المنتشرة عبر اطراف العالم الاسلامي بعض النظر عن طبيعتها أو تسميتها، وهو مايمثل تحولا جذريا في الاشكال الذي ينبغي أن تواجهه هذه الحركات وتداخلها كبيرا بين مبررات وجودها التي تحملها الصياغة التقليدية لأهداف الحركات الاصلاحية في خطابها الجماهيري وبين مبررات الوجود التي تتحكم الحضارة الغربية في صياغتها بشكل أو بآخر للتحويل هذه الحضارة الى العسفيد الاكبر من هذا الوجود الصوري المشلول.

لذلك جاءت هذه المداخلة لتستيز إلى ضرورة التحول في أساليب مواجهة الحضارة الغربية في ظل منطلقات الأحداث المعاصرة الأخيرة بالمرآة على الفقه الاجتماعي الإسلامي في حياة المسلمين باعتباره البنية التحتية التي يجب أن تضعف حصانيتها في ظل التزدي السياسي الكبير الذي مني به المسلمون داخليا وخارجيا. وللتأكيد أيضا على أن هذا الفقه لم يلق اهتماما مناسبا في إدارة دفة الصراع مع كيان الحضارة الغربية ولم يحض بالتحفز المناسب كما هو الحال بالنسبة للفقه السياسي. وقد جاءت هذه المداخلة في المبحثين التاليين :

المبحث الأول: أهمية الفقه الاجتماعي في حياة المسلمين

المقصود بالفقه الاجتماعي الأحكام الشرعية التي تنظم علاقة الفرد بغيره ممن يحيطون به من أفراد المجتمع سواء كانت هذه العلاقات علاقات قريبة (العلاقات الأسرية) أو بعيدة (علاقات الجوار أو علاقات العمل)، إذ طبيعة المجتمع تقتضي أن أفراد لا تتحكم فيهم إلا رغباتهم الخاصة وإرادتهم الذاتية، بل يخضعون إلى جملة من المؤثرات العامة والصلوات المشتركة تثبت انتماءهم إلى وحية معينة تثبت تميزهم عن غيرهم من الكيانات الإنسانية (ولا عجب في ذلك إذا لولا وجود هذه الظواهر التي ينشأ عنها هذا النمط من السلوك الاجتماعي لكان المجتمع عبارة عن حشد أو زكام يتكون من أفراد متراصين مكانيا فقط أي يوجدون بجوار بعضهم البعض من غير أن تربطهم روح جمعية أو تسدهم علاقات وحيوية تجعل ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم في نسق منسجم في مختلف أحواله : في سكونه وحركته، في ضعفه وقوته في عزه وذلّه، في أفراحه وأفراحه وفي كل ما يعرض له من انتقالات وتطورات) ¹، فكل مجتمع ظواهر ونظم وقوانين تمثل ثقافته شكلا ومضمونا وأن هذه الثقافة هي — حتماً — هيكل أساسي تكويني بالنسبة إلى وجوده، وأنها هي التي تعطيه طابعه المميز، وأنها ما استطاعت ذلك إلا لأنها اتخذت لنفسها مقاييس عامة مشتركة للخير والشر، للحق والباطل للخطأ والصواب، للمناسب وغير المناسب، للجمال والحسن والقبح ².

فهل مازلنا نتحكم في علاقاتنا الاجتماعية القريبة أو البعيدة إلى هذه المقاييس الإسلامية المشتركة في الخير والشر والحق والباطل والخطأ والصواب للمناسب وغير المناسب للجمال والحسن والقبح ³. وهل ما زالت الأسر الإسلامية في نشأة أبنائها تتمسك بهذه المقاييس ⁴. الذي لا شك فيه أن قيم الاجتماع الغربية

هي المسيطرة على كل ذلك مع أن حضور هذه القيم في حياتنا لا يحتاج إلى سلطة سياسية تفرضه وترتب العقوبة على مخالفته بقدر ما يحتاج إلى إيمان الأفراد بهذه القيم واعتزازهم بالانتماء إليها. فالمشهد الاجتماعي لحياة المسلمين يؤكد حضور تكيف غريب مع قيم الاجتماع الغربية، فقد تكيف المسلمون في مظاهر اجتماعهم مع قيم الحضارة الغربية، والتكيف هو أعلى درجات القبول والتساقط مع الأوضاع القائمة، فهو عملية اجتماعية على جانب كبير من الأهمية مؤداها أن يتكيف الإنسان بالبيئة الاجتماعية التي يعيش فيها ويصبح قطعة منها فلا يشعر بوطأة نظمها ولا بضيق ذرعا بأوضاعها، بل ترسب هذه النظم والأوضاع في تكوينه وتصبح من أهم مقومات شخصيته ومن أعز ما يحرص عليه³.

ويؤكد الباحثون في تاريخ المسلمين أن الوازع النفساني الذي يصدر عن الإيمان الكامل كان له القدر الكبير في إرساء أركان المجتمع الإسلامي في أطوار نشأته الأولى، يقول ابن عثوم عن هذا الوازع وأثره في تأسيس المجتمع الإسلامي: (فكان الوازع النفساني في تلك الأيام مغنياً غناء القوانين والسنن فلم يحفظ تاريخ السيرة النبوية احتياج الرسول إلى إقامة أوامر الإسلام بين أتباعه بالقوة والسلطان بل دام المسلمون زمان إقامتهم بمكة لا وازع يزعمهم عن تجاوز حدود الشريعة غير الوازع النفساني الناشئ عن كمال الإيمان)⁴، وهذا الوازع هو الذي طبع حياة المسلمين في مختلف العصور بالطابع الإسلامي الذي يحكي لنا المؤرخون لنا فيه عن صور نادرة لعدى حضور الروح الإسلامية في المشهد الاجتماعي للمسلمين، فهذه الروح لا تغرض بالقانون ولا تقام بالسلطان بقدر ما ترتب عن ذلك الوازع ترتباً لزومياً.

ومن الشواهد في واقعنا التاريخي التي تبين فعالية هذا الوازع وتثير إلى أن وجودها لا يرتبط بوجود السلطان الذي يفرض الالتزام بالتشريع بقدر ما هو مرتبط بكمال الإيمان، من بين هذه الوقائع أن ماعز بن مالك بفعل فعله ولم يره أحد ولكنه يجيب للنبي صلى الله عليه وسلم من تلقاء نفسه، ويقول له: (ظهرني)، ويقول النبي: ويحك إرجع فاستغفر الله وثب إليه، ولكنه كلما أرجع عاد، ولم يهدأ إلا في الرابعة عندما أذن بالتنفيذ ليظهر. وهذه الغامضية لك من تلقاء نفسها، وقالت: ابني زنيبت فظهرني، فإردها النبي صلى الله عليه وسلم، ولكنها تعود من الغد راجية أن لا ترد ثانية كما رد ماعز فأنته (فوالله ابني لحبلى)، فيقول لها

النبي صلى الله عليه وسلم (فذهبي حتى تئذي، ثم تئتي بالصبي، فيقول لها : انذهني حتى تقطعيه ثم تئتي والصبي في يده كسرى خبز، وتقول : هذا بني قد قطمته، وقد أكل الطعام، وهكذا لم يهدأ لها بال حتى تطهرت، وأسلمت أمرها للموت ورجعت نفسها إلى ربها راضية مطمئنة ⁵ .

وهذه امرأة في عهد عمر ابن الخطاب يغيب عنها زوجها طويلا، وتستبد بها غوائل الشهوة فتتشد في وحدتها :

تطاول هذا الليل تسري كواكبه وأرقني أن لاضجيع الأعيه

فوالله لو لا الله لآسيتي غـيره حرك من هذا السرير جوانيه

ولكني أخشى رقبيا موكلا بأنفسنا لا يفتر الدهر كاتبه

وهذه امرأة عجوز تخاطب ابنتها قائلة : يا بنتاه قومي إلى ذلك اللبن فامذقيه بالماء. فقالت : يا أماه أو ما علمت ما كان من عزيمة أمير المؤمنين اليوم حيث أصدر أمرا يقضي بمنع الغش، وتزد الأم قائلة أين نحن من عمر، فإبتك في موضع لا يراك عمر، ولا مناديه إنه يغط في نومه، وتزد البنت قائلة : يا أماه إن كان أمير المؤمنين لا يرانا فرب أمير المؤمنين يرانا ⁶ .

أين هذا الوازع اليوم في علاقتنا الاجتماعية؟! أين فقه البيوع في حياتنا الاجتماعية كما أرسى دعائمه أجيال الفقهاء على مدار أنوار الفقه الإسلامي في بناء منسقى يمنع أيسر ضرر قد يلحق بالمستياك؟! إن أسواق المسلمين اليوم كلها تنور على الصور الشاذة لنظام التعاقد في الإسلام من التنايس والغش والتعامل بالربا. وماذا بقي من فقد الأسرة؟! أليست قيم الحضارة الغربية هي المسيطرة على نظام الزواج عندنا انشاء وفضا حتى وإن كانت قوانين الأحوال الشخصية للدولة الإسلامية مستمدة من الشريعة الإسلامية فإن التفكير الاجتماعي لمعظم شرائح الشعوب الإسلامية في التعامل مع قضايا الأسرة تستوييه عادات الغرب وتقاليده ويكن لها تمجيذا خاصا قد يجادل في رفضه واحتقاره لكنه لا يقاوم الرغبة في إظهاره والتسك به .

وإين هي قيم التعاون والتكافل وحقوق الأخوة بين المسلمين؟! أليست

الفردية والأنا هي الشريعة المحكمة في أغلب علاقتنا الاجتماعية؟! .

إن هذه الصور وغيرها كثير تؤكد أن هناك تغيير اجتماعي حادث لم يشهده المجتمع الإسلامي في أبلغ مراحل تحرفا عن قيم الإسلام ففي كل هذه

المراحل كان هناك حد أدنى من الصمود يبقي بعض ملامح هويتنا الاجتماعية على اعتبار أن التغيير الاجتماعي هو (كل تحول يقع في التنظيم الاجتماعي سواء في بنائه أو وظائفه خلال فترة زمنية معينة، والتغيير الاجتماعي على هذا النحو ينصب على كل تغيير يقع في التركيب السكاني للمجتمع أو في بنائه الطبقي، أو في نظمه الاجتماعية، أو في أنماط العلاقات الاجتماعية أو في القيم والمعايير التي تؤثر في سلوك الأفراد والتي تحدد مكانتهم وأدوارهم في مختلف التنظيمات الاجتماعية التي ينتمون إليها)⁷.

ولما كان خضوع المسلمين إلى هذا الفقه في حياتهم على قدر كبير من الأهمية فإن نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية قد استفاضت في بيان أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، كما في قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾⁸، فمضمون الآية يشير إلى أن التنازع والتخاصم أوصاف لا يستقيم عليها بناء المجتمع، لأنه لا يمكن بحال أن يوجد وسط اجتماعي يتصف بالحياة وبملك الحصانة تجاه الأنماط الاجتماعية الأخرى إذا كانت الخلائق متدابرة والقلوب متباغضة والعداوة موروثية متجذرة في النفوس لا يردعها قانون ولا يصددها نظام، فالاجتماع مع اتساع الفرفة وقيام العداوة اجتماع متعذر، إذ المجتمع في نظر القرآن تألف بين القلوب واتحاد في المشاعر وتشارك في الوجدان⁹.

وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالتَّعَدَاوِ ۗ﴾¹⁰ فإلية تأمر بالتعاون وتحت عليه وما التعاون إلا مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية. ومن البين أن المجتمع لم يتميز عن الحشد والجمع إلا لكونه لا يبني علاقاته على الروابط الدموية لتلك العلاقات الطبيعية التي تجعل أفراد الأسرة الواحدة متصلين مترابطين على رغم ما قد يكون بينهم من عوامل الانفصال، وإنما يبنونها على التعاون ويقمها على تبادل المصالح وتنوع المطالب وتكامل الوظائف¹¹. ومع أن دلالة الأمر في نصوص التشريع واحدة فالعجب ممن يهمل دلالة هذا الأمر التشريعي الذي لا يمنع من تنفيذ سلطان جائر ولا حكومة مستبدة ويتأسف على ضياع دلالات الأوامر التشريعية في أحكام الحدود.

قال تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَر قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ، وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْنَّيْنِ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا احْتَبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ أَثْمٌ وَلَا تَحْسَبُوا وَلَا يَغْتَب بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُّب أَحَدَكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مِمَّا فَكَرَهُتُمْوه وَلَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ نَوَّابٌ رَحِيمٌ {12}. أين دلالات هذه الأوامر في علاقتنا الاجتماعية ؟. بل ولين هذه الحقوق في صفوف من تحلوا أسماء الإصلاح وانتصوا لإقامة الأعوجاج ومحاصرة الانحراف؟ (إن سخرية البعض من البعض، واستهزاء البعض بالبعض، واحتقار البعض للبعض، والبراءة في تحريج الآخرين، والمباراة في سبب العيوب والخبرة في النقاط النقائص، والتفنن في اختلاق الألقاب المستيجنة والإكثار من سوء الظن، والكشف عما تحت الستائر والقنف جزافا وتناول الأعراض بالغبية والنميمة والبهتان وأكل لحوم الآخرين. إن تلك أفك خطيرة لا يرتضيها الإيمان، ولا تفرها التقوى. وتأبأها الأخوة لأنها تجعل القلوب متنافرة والنفوس متباغضة)¹³ والمتتبع لمرآح تاريخنا الطويل يجد أن حضور الفقه الاجتماعي في حياة المسلمين وتجسده في شكل مظاهر اجتماعية كان أكثر شيئا من الفقه السياسي الذي طرأت عليه تحولات عدة انتهت إلى زواله بسقوط الخلافة .

المبحث الثاني: مبررات المراهنة على الفقه الاجتماعي

إن المراهنة على الفقه الاجتماعي في هذا الظرف تفرضها شواهد الواقع المعاصر للمسلمين كما تفرضها دلائل الشرع ورويته المتكاملة للكون والحياة . بسقوط بغداد سقطت أشياء كثيرة نعل أبرزها سقوط نظرة الحركات الإصلاحية إلى الأنظمة الحاكمة في الدولات العربية باعتبارها السد المانع من تحقق مشروعها الإصلاحي الكبير الذي منت به جماهير الأمة الإسلامية وخاصت تجارب مزيرة في سبيل تحقيقه منذ سقوط الخلافة العثمانية. فقد تاكد للجميع أن الأنظمة العربية لا تملك شهادة ميلادها كما كان يعتقد ويتصور إلى وقت قريب، وأن هذه الشهادة لا قيمة لها مالم توقعها الحضارة الغربية ممثلة بالسياسة الأمريكية في العالم الإسلامي بل ولعالم بصفة عامة. وأن هذه الحضارة هي التي تملك شهادة وفاتها أيضا وهي التي تتحكم في تاريخ توقعها الذي يتزامن مع اعتقاد أي نظام عربي بعكس هذه الحقيقة كما حدث مع النظام العراقي الذي اعتقد أنه شئني

يذكر خارج الموقف الأمريكي فتحول إلى مجرد أثر بعد عين، وهو ما يؤكد أن الجهود الإصلاحية في العالم الإسلامي يجب أن تنظر بموضوعية كبيرة إلى أي نصر قد يتكسبه في صراعها مع الأنظمة الحاكمة على سدة الحكم وأن تعطي لهذا النصر حجمه الحقيقي في ظل الأحداث المعاصرة. فمادنا تعني حقيقة وزارية أو حقيقتان أو حكومة بأكملها في ظل السياسة الأمريكية التي طالت رقابتها حتى المناهج الدراسية المعتمدة من الأنظمة العربية ؟ فمادنا يعني ذلك في منطلقات النصر والهزيمة ؟. لذلك فإن النصر الحقيقي الذي يمكن أن تحققه الجهود الإصلاحية في المرحلة الراهنة هو الهزيمة التي يمكن أن نلحقها بالحضارة الغربية في قلوب المسلمين، والخلقة التي يمكن أن نحدثها هذه الجهود الإصلاحية في الأنماط الاجتماعية في حياة المسلمين الممتعة بالقيم الغربية فتجعلهم يشعرون بوطأة هذه القيم وغريبتهم عنها، فالمنطق الأمريكي في إدانة العراق وتحطيمه منطوق يعيش بيننا ونحمله في أدبيات تفكيرنا ونمارسه في علاقتنا الاجتماعية بل وحتى في نقد جهودنا الإصلاحية وتقويمها نستخدم هذا المنطق لتقويض الآخر إن لم ينتظم في الروى الخاصة والتصورات الذاتية للحقائق والأشياء.

لذلك فإن إحياء أدبياتنا الاجتماعية بالممارسة الفعلية من شأنه أن يغير الكثير من الأشياء، كما في حقوق الأخوة والتزاماتها الشرعية من شأنه أن يمكن من السيطرة على الكثير من الانحرافات ويحطم الثنائيات المغلوطة والتي من أبرزها الربط بين نجاح أو فشل المناهج الخاصة بنجاح أو فشل الإسلام والربط بين تحقق المكاسب الخاصة بالكيانات والطوائف وتحقيق الدعوة، فهذا خلاف منهج الأنبياء وسلفهم الصالح في الدعوة إلى دين الله، وأقولنا في ذلك سيرته صلى الله عليه وسلم فقد حاول الكفار تقليم أهدافه وتحجيد طموحه بالتمتع على مشاركتهم في مردود الأوضاع القائمة إذ القوم حاولوا عرض الزعامة عليه فرفضها رفضاً صريحاً لا يحتمل التأويل، إذ أتيم قد أرسلوا في طلبه وقالوا له : (فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى نكون أكثرنا مالا، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فإنا فنحن نسودك علينا، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، فأجابهم مبني ما يقولون ولكن الله يعطي إنيكم رسولا، وأنزل على كتابا، وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا، فليعلمكم رسالات ربي، ونصحت لكم فإن تغلبوا متى ماجنكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردود على أصغر لأمر الله

حتى يحكم بيني وبينكم)¹⁴ فمزاومة السلطة الحاكمة على مردود الترددي أو ميادنة الأوضاع القائمة في مقابل الزعامة أو النفوذ الحراف كبير طوق الجهود الإصلاحية وشل حركتها وحجب أفقها .

فمنهج تفصيل الإسلام في حياة المسلمين منبج بقوم على التصحية بالذات ممثلة في المكاسب الخاصة لصالح الهدف (تفصيل الإسلام في حياة المسلمين) وليس استغلال الهدف للمحافظة على المكاسب الخاصة أو تعزيز وجودها والمبالغة في تبيجها لذلك كان اختلاف سلفنا في الرأي لا يتجاوز الأطر الشرعية لفقه التعامل مع الآخر. فهو خلاف (لم يكن سبياً لإفتراقهم، انهم اختلفوا لكنهم لم يتفرقوا لأن وحدة القلوب كانت أكبر من أن ينال منها شيء، انهم تخلصوا من العلل النفسية وإن أصيب بعضهم بخطأ الجوارح، وكان الرجل الذي بشر الرسول صلى الله عليه وسلم بطلعه عليهم وأخبرهم أنه من أهل الجنة، هو الذي استكبهوا المره وعمله قتيبن أنه لا ينام وفي قلبه غل لمسلم)¹⁵ . لأن الإسلام حركة باتجاه التوافق مع سنن الوجود والعالم، فأحرى به أن يكون متحققاً بالتوافق مع نفسه¹⁶ .

ورغم هذا القصور المشاهد في الجببة السياسية وضعف مردودها في توجيه حياة المسلمين نحو قيم الإسلام وتعاليمه فإن هناك تضخم في العناية بالمسألة السياسية على حساب المسألة الاجتماعية حتى على المستوى الفكري، إذ يتفق الكثير من المفكرين أن هناك احتجاس مزمن بالمسألة السياسية على حساب المسألة الاجتماعية فقد تحولت المسألة السياسية إلى محور المنهج الفكري العربي والإسلامي الذي انجذب إلى هذه المسألة محاولاً إعطائها الأولوية في النظر والبحث، ورغم أن المنهج في ذلك كان غزيراً في الكم إلا أن الباحث فيه لا يعسر عليه أن يلاحظ أنه دخل في دائرة التكرار والتكرار المشوه في بعض الأحيان لأصول الأفكار التي طرحها الرواد الأوائل، (بل بلغ به فقره مبلغاً لا سابق له في الخطورة : إنتاج لغو إيدلوجي في مسائل مستغلقة على غير أهلها من المالكين شرائط النظر والفحص، والقارئ اليوم في ذلك الكم الهائل من النصوص — متأخرها على وجه الخصوص — لا يجد كبير رسع إلى تمييز سميتها عن غيرها، إما لتدرة ما يستحق منها أن يحسب في عداد النصوص، أو لتداخل الفكر والمضاربية الأيديولوجية في النص الواحد، إذا استثنى الباحث نصوص الإصلاحيين الإسلاميين في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، وهي التي احتارت ماهية فكرية

ذات اعتبار، فإن البوافي مما ضخته آلة النشر منذ سبعين عاماً ليس له تصاب من الفكر السياسي كبير مقام إلا دررا بيشمه لم بعدمياً تاريخنا الفكري على كل حال¹⁷ فهذا التضخم في العناية بالمسألة السياسية يقلبه اهتمام قاصر بما آل إليه الواقع الاجتماعي للمسلمين رغم أن الجانب الاجتماعي في النبوة مطلقاً يعتبر الصفة الأساسية لجوهرها، وهذا ما يؤكد معنى النبوة ذاته فالنبوة (مصطلح استعمله العرب والمسلمون القدماء وهو منسوب إلى هو، وهذه النسبة تشير إلى ما يحمله من مضمون، فهي كما يقول الحرجاني في التعريفات الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق. أما مفاهيمها الحديثة فإنها لا تخرج عن هذا المضمون عندما قالت أنها حقيقة الشيء أو الشخص المطلقة على صفاته الجوهرية والتي تميزه عن غيره وتسمى أيضاً وحدة الذات وبعبارة أخرى ... فإننا نستطيع أن نقول أن النبوة الحضارية لأمة من الأمم هي القدر الثابت والجوهري والمعتزك من السمات العامة التي تميز حضارة هذه الأمة عن غيرها من الحضارات¹⁸ .

على أن إهمال الجانب الاجتماعي في المواجبة مع الحضارة الغربية يدل على قلة ما انتهى إليه الوعي بواقع المسلمين إذ (الاهتمام المعرفي بهذا الواقع ينحط في الثقافة الإسلامية الراهنة إلى درجات بعيدة، وهو ما تمثل جلياً في ذلك الفقر المنفع الذي تعانيه المكتبة الإسلامية اليوم من الدراسات الواقعية لحياة المسلمين : اجتماعياً وثقافياً وسياسياً وديموغرافياً، بحيث تصف ذلك الواقع وتحلل عناصره، وتبين أسبابه وملابساته، حتى إن المحتاج إلى علم في ذلك يجد أنه لامناص له من أن يرجع إلى بحوث ودراسات أنتجها الفكر الغربي الذي توجه إلى واقع الحياة الإسلامية بالدرس الشامل والعميق حتى أصبح أهل الغرب يعلمون من الأحوال الواقعية للمسلمين أكثر مما يعلم المسلمون أنفسهم عن أنفسهم¹⁹ .

من بين مبررات الالتفات إلى أقطب الاجتماع في المرحلة الراهنة أيضاً أن القرآن الكريم أثبت أن مستوى العلاقات الاجتماعية في نية المجتمع هو أساس الاجتماع وأصل العمر، فلا يقوم القرع والأصل معنوه كما لا يقوم القرع على أصل نخره السوس وذب فيه التصدع قال تعالى: ﴿واعصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم

تكونون} ²⁰، فمضمون الآية يفيد أن التنازع والتخاصم والتعادي مؤشرات شوم، وعلاقات خراب ودمار لأنه لا يمكن بحال أن يوجد وسط اجتماعي يتصف بالحياة والنمو إذا كانت الخلائق متدابرة، والقلوب متباغضة والعداوة موروثة متمكنة في النفوس لا يقوى على ردعها قانون. ولا يجد لبيب لها نظام. ومن هنا يمكن القول بأن القرآن ينفي الاجتماع مع العداوة ²¹. وإذا لتقى الاجتماع أو اختلت موازينه تعذر الإصلاح سياسياً أو ثقافياً .

لذلك يتأكد أن الجهود الإصلاحية مجبرة اليوم على النزول إلى أعماق المجتمعات وبناءاتها الأساسية إذا أرادت أن تحدث أثراً في حياة الناس يمكنه أن يتحول إلى سد منبع بقق في وجه العرب والله موفق .

الهوامش :

- ¹ محمد التومي. المجتمع الإنساني في القرآن الكريم. ص 299. الجزائر. المؤسسة الوطنية للكتاب .
- ² جردات عزت. البديل الحضاري للمجتمع المعاصر. ص 129. مجلة أسئلة المعاصر، ع 13، 1978م.
- ³ المنهج الإسلامي في دراسة المجتمع. نيل محمد توفيق السليطي. ص 266. جدة. دار الشروق. ط 1.
- ⁴ أصول النظام الاجتماعي في الإسلام. ابن عثرون. ص 90. الجزائر. المؤسسة الوطنية للكتاب. ط 2.
- ⁵ السد. الصبح الصريح. كتاب العداوة. ص من اعترف على نفسه بقرآن. 119/5 .
- ⁶ تاريخ عمر ابن الخطاب. ابن الجوزي. ص 77، 76 .
- ⁷ معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية. عبد رزق تويي ص 582. مكتبة لبنان. ط 1.
- ⁸ ابن عمران. الآية 103 .
- ⁹ المجتمع الإنساني في القرآن الكريم. محمد التومي. ص 270 .
- ¹⁰ المائدة الآية 2 .
- ¹¹ المجتمع الإنساني في القرآن الكريم. التومي. ص 272 .
- ¹² الحجرات. الآية 11 - 12 .
- ¹³ المجتمع الإنساني في القرآن الكريم. التومي. ص 274 .
- ¹⁴ ابن هشام. السيرة النبوية. 261/1. حصر. شركة الطباعة المتحدة .
- ¹⁵ كتاب ابن الاختلاف في الإسلام. عمر عبيد حسنة. تقدم لجنة حوار العلواني. ص 13. الجزائر.
- ¹⁶ بحث منهجية التعامل مع علوم الشريعة في ضوء التحديات المعاصرة. عماد الدين خليل. بحوث مؤتمري علوم الشريعة في الجامعات. 617/2. الأزهر. جمعية الدراسات والبحوث الإسلامية. ط 1 - سنة 1995م.
- ¹⁷ النبوة في الفكر الإسلامي المعاصر. عبد الله بقرين. ص 10. بيروت. مركز دراسات الوحدة العربية.
- ¹⁸ النبوة الحضارية محمد عبارة ص 79 - 80. سما. ع 3. مجلة الأولى .
- ¹⁹ تعامل الشعوب الحضارية (2). عبد المجيد شحرار. ص 43. بيروت. دار الغرب الإسلامي. ط 1. 1999
- ²⁰ ابن عمران. الآية 103 .
- ²¹ المجتمع الإنساني في القرآن الكريم محمد التومي. ص 270 .